

الثَّانِيَّةُ وَاجْمَعُ عِنْدَ الْأَطْفَالِ

بَيْنَ الثَّالِثَةِ وَالسَّادِسَةِ

د. كالت بكداش

1 - مقدّمة

تنطوي دراسة تطوّر استعمال الصيغ الصرفية والنحوية عند الأطفال على غايات نظرية وعملية. فمن الوجهة النظرية تتيح هذه الدراسة إبراز بعض المسائل المتعلقة بآليات اكتساب اللغة وبالعوامل المؤثرة في هذا الإكتساب. ويمكن صياغة هذه المسائل على صورة الأسئلة الآتية: هل يقتصر الطفل على التكرار الصرف للصيغ اللغوية التي يسمعها من حوله؟ أي بكلام آخر: هل يكتفي الطفل بمحاكاة لغة الكبار؟ وعليه كيف نفسّر الأغلاط اللغوية التي تظهر على ألسنة الأطفال؟ أي بكلام آخر: كيف نفسّر ابتكار الطفل لبعض الصيغ اللغوية التي لم يسمعها من قبل على الإطلاق؟ وما هي العوامل التي تؤثر على تحكّم الأطفال باستعمال الصيغ اللغوية؟ ما هو نصيب ظروف البيئة اللغوية (التعزيزات اللفظية، تواتر الصيغ اللغوية...) في هذا التحكّم وما هو نصيب القيود اللغوية الصرفية والعوامل المعرفية؟

أما من الوجهة العملية فلا ريب أن تضافر البحوث حول تطوّر الصيغ الصرفية والنحوية عند الأطفال سوف يؤوّل في نهاية المطاف إلى رسم صورة دقيقة ومحدّدة عن تطوّر قدرات الأطفال على التحكّم باستعمال الصيغ اللغوية، وهو ما ينطوي بطبيعة الحال على فائدة عملية مؤكّدة في مجاليّ تعليم اللغة والتدريب عليها.

لهذه الاعتبارات النظرية والعملية ارتأينا أن نبدأ بدراسة تطور صيغتين صرفيتين هما المثنى والجمع للإسماء عند الأطفال بين الثالثة والسادسة.

2 - قواعد المثنى والجمع في العامية

تُستعمل صيغة المثنى في العامية للأسماء ولا تُستعمل للأفعال والضمائر؛ وعلامة التثنية الياء والنون الساكنتان

بعد حرف مفتوح أو مائل كما في «حصانين» أو «حصانين». وقد تُضاف قبل الياء والنون الساكنتين التاء المفتوحة أو المائلة في الأسماء المؤنثة التي لا تنتهي بتاء التأنيث كما في «عيتين» أو «عيتين».

أما المجموع للأسماء في العامية فثلاثة:

- جمع مذكر وعلامته الياء والنون الساكنتان بعد حرف مكسور كما في «نجار - نجارين» ،
- وجمع مؤنث وعلامته الألف والتاء الساكنتان كما في «وردة - وردات» ،
- وجمع تكسير ولها أوزان سماعية عدّة نذكر منها ما إستخدمناه في الاختبار الذي أجريناه في هذه الدراسة :

«ملعقة - ملاعق» على وزن مفاعل

«حصان - أحصنة» على وزن أفعلة

«صبي - صبيان» على وزن فعлан

«عصفور - عصافير» على وزن مفاعيل

«فنجان - فناجين»

«كلب - كلاب» على وزن فَعَال

«كرسي - كراسي» على وزن فَعَالِي

«أرنب - أرانب» على وزن مفاعل

«قلم - أقلام» على وزن أفعال

«كتاب - كُتُب» على وزن فُعَل

«عين - عيون» على وزن فعول

(في كل ما تقدّم تؤخذ بالإعتبار التغيرات النطقية في اللهجات المحلية).

3 - طريقة البحث

أعدنا لدراسة صيغ المثني والجمع للأسماء عند الأطفال ثلاث مجموعات من اللوحات. تشتمل كل لوحة من المجموعة الأولى على صورة شيء أو كائن في حالة الإفراد كصورة «حصان». أما كل لوحة من المجموعة الثانية فتشتمل على صورة الشيء أو الكائن في حالة الإزدواج كصورة «حصانين»، فيما تشتمل كل لوحة من المجموعة الثالثة على صورة الشيء أو الكائن في حالة الكثرة كصورة تضم خمسة «أحصنة».

ضُمّت الصورة المفردة الأشياء والكائنات الآتية:

وردة - ملعقة - حصان - صبي - عصفور - كلب - كرسي - أرنب - قلم - كتاب - فنجان - عين.

تُعرض على الطفل في البداية صورة مفردة ويُطلب إليه: شو شايف بها الصورة، ويتم تسجيل الإجابة. يُسمح في هذه المرحلة فقط من الاختبار بتصحيح إجابة الطفل في حال عدم مطابقتها لمضمون الصورة. في المرحلة الثانية

تُعرض على الطفل صورة الشيء نفسه أو الكائن نفسه في حالة الأزواج ويُطلب إليه: هيدا كذا وهيدا كذا، شو منقول لهاي وهاي مع بعض (نحاشينا استعمال عبارة: شو منقول للتين، لأن كلمة «تين» قد توجي للطفل بصيغة التثنية) ومن ثم نقوم بتسجيل الإجابة كما ظهرت فعلاً ولا يُسمح بالتصحيح. في المرحلة الثالثة تُعرض صورة الشيء نفسه أو الكائن نفسه مكرراً خمس مرات (حالة الكثرة) ويُطلب إلى الطفل: هيدا كذا وهيدا كذا وهيدا كذا. . . شو منقول لكلُن مع بعض؟ ومن ثم يتم تسجيل الإجابة بدقة.

بذلك تتحصّل لدينا إجابات كل طفل في حالات الأفراد والتثنية والجمع إزاء اثني عشر شيئاً وكائناً (أي $12 \times 3 = 36$ إجابة).

طُبّق هذا الاختبار* على 92 طفلاً تتراوح أعمارهم بين الثلاث سنوات والست سنوات وتوزّعوا وفقاً لأعمارهم على الشكل التالي:

العمر بالسنوات والأشهر	العدد
3, 3-6	16
4-3, 6	16
4-4, 6	15
5-4, 6	14
5-5, 6	12
6-5, 6	19
المجموع	92

٤ - النتائج وتحليلها

أ - تطوّر استعمال المثني

تخضع تثنية الأسماء في لغة الكبار العامة لقاعدة بسيطة ومطرّدة قوامها زيادة الياء والنون الساكنتين بعد حرف مفتوح أو مائل. وبالرغم من بساطة هذه الصيغة وأطرافها فإن الطفل الصغير قبل الثلاث السنوات ونصف السنة على الخصوص لا يلجأ إلا فيما ندر إلى استعمالها حينما يستدعي الموقف هذا الاستعمال. غير أن الطفل في هذه الفترة كما في الفترات اللاحقة من عمره لا يلجأ على الإطلاق تقريباً عند قصوره عن استعمال صيغة المثني القويمة إلى استعمال صيغ غير قويمة للتثنية (كما سوف نلاحظ في حالة المجموع)، إنما هو يلجأ في هذه الحالة إلى استعمال صيغ بديلة غير

* طُبّق هذا الاختبار الطالبتان في قسم علم النفس - الجامعة اللبنانية. رجاء السوفي وسامية خليفة.

مثناة أهمها المفرد (حصان بدلاً من حصانين) أو صيغة «تين مضافاً إلى المفرد» (تين حصان) أو صيغ الجمع القويم منها وغير القويم (أحصنة، حصانات، حصونة...).

نجد في الجدول رقم 1 وفي الرسم البياني رقم 1 نتائج الاختبار الذي قمنا به والمتعلقة بتطور النسب المئوية لاستعمال صيغة المثنى القويمة والصيغ البديلة غير المثناة (المفرد، تين + المفرد، الجمع) وفقاً لفئات الأعمار.

— مثنى قويم

--- مفرد

..... - تين + مفرد

+++ جمع

فئات العمر

الرسم البياني رقم 1 تطور النسب المئوية لاستعمال صيغة المثنى القويمة وبدائلها حسب فئات العمر..

6-5,6 5,6-5 5-4,6 4,6-4 4-3,6 3,6-3 25 50 75 %

6-5,6	5,6-5	5-4,6	4,6-4	4-3,6	3,6-3	العمر بالسنوات والأشهر الصيغ المستعملة
70,63	64,58	60,7	24,5	29	13	المثنى القويم
1,32	4,83	6,5	25	6	14,5	المفرد
3,53	6,25	14,3	11,6	37,5	25	تين + المفرد
18,42	21,5	18,5	35	27	35	الجمع
6,16	2,75	0,0	3,9	0,5	12,5	صيغ أخرى

الجدول رقم 1

تطور النسب المئوية لاستعمال صيغة المثنى القويمة وبدائلها حسب فئات العمر.

نخلص من هذه النتائج إلى الخلاصات الآتية :

- لا يتحكم معظم الأطفال في سن ما بين 3 سنوات و3 سنوات ونصف السنة باستعمال صيغة المثني القويمة، إذ أن 13% فقط من إجابات الأطفال في هذا السن استخدمت هذه الصيغة. تتزايد هذه النسبة في الفترة اللاحقة (بين 3,6 - 4 سنوات) تزايداً ملحوظاً بما يزيد على الضعف (29%) لتتضاءل في الستة أشهر التالية (بين 4 - 4,6) تضاهلاً محدوداً (24,5%). ويظهر من خلال هذه النتائج أن ما يزيد على ربع الأطفال بين الثالثة والنصف والرابعة يتحكمون باستعمال المثني استعمالاً قوياً، ويظل هذا المعدل مستقراً على التقريب في الأشهر الستة التالية بما يوحي أن هذه الفترة من العمر (بين 4 - 4,6) تشكل فترة ركود لغوي في تطور استعمال المثني.

تمثل الفترة الواقعة بين 4,6 - 5 سنوات بلا أدنى ريب فترة الطفرة في استعمال الأطفال لصيغة المثني القويمة. فنسبة الأطفال الذين يتحكمون بهذه الصيغة في هذا السن بلغت في اختبارنا 60,7%، أي ما يزيد على ضعف النسبة في الفترتين السابقتين. تتزايد هذه النسبة في الفترتين اللاحقتين تزايداً متدرجاً وثابتاً لتبلغ على التوالي 64,5% (بين 5,6-5 و 70,6%) (بين 5,6 - 6). وعليه يبدو أن ما يقل قليلاً عن ثلاثة أرباع الأطفال يتحكمون على مشارف السادسة من عمرهم باستعمال المثني استعمالاً قوياً فيما يظل ما يزيد على الربع منهم ما دون هذا التحكم.

- ينعدم لجوء الأطفال في كل الأعمار إلى صيغ غير قويمة للمثنى انعداماً شبه تام. فاستعمال المثني يخضع في كل الأعمار لمبدأ كل شيء أو لا شيء: فإما أن يظهر قوياً أو لا يظهر على الإطلاق تقريباً في صيغ غير قويمة. ونقول «شبه تام» وعلى الإطلاق تقريباً لأن بعض هذه الصيغ غير القويمة للمثنى قد ظهرت فعلاً إلا أن ظهورها كان محدوداً للغاية وفي حالات نادرة للغاية لا سيما في حالة خاصة سوف نعود إليها لاحقاً وهي حالة تثنية «صبي». ففي هذه الحالة خاصة تُثني قلة قليلة من الأطفال «صبي» على صيغة «صبيان» (ظهرت هذه الصيغة 9 مرات في كل الأعمار أي ما يعادل تقريباً 10% من إجابات الأطفال أما الصيغ غير القويمة الأخرى للمثنى فهي: كلبان (مرتان)، كتابان، كتابتين، عيونتين، مرة واحدة فقط لكل منها).

- يلجأ الأطفال عند قصورهم عن استعمال التثنية القويمة إلى صيغ بديلة أهمها المفرد وصيغة «تين+ المفرد» وصيغ الجمع القويم منها وغير القويم وصيغ أخرى أقل أهمية كتكرار المفرد (عين وعين مثلاً). يشكل الجمع أهم هذه البدائل في كل الأعمار (باستثناء السن 3,6 - 4) ويكاد يغدو البديل الوحيد تقريباً للتثنية على مشارف السادسة من العمر، إذ تظل في هذا السن (5,6 - 6) نسبة 18,4% من إجابات الأطفال تلجأ إلى استعمال صيغ الجمع عوضاً عن المثني. أما الصيغتان الأخريان (المفرد، تين+ المفرد) فإنهما تتناقضان بوجه عام مع العمر إلى أن يتلاشى اللجوء إليهما تقريباً على مشارف السادسة. غير أن ما يلفت النظر في تطور استعمال هذه البدائل للمثنى هذه النسبة المرتفعة نسبياً في استعمال المفرد: (25%) من عمر (4-4,6) بالمقارنة مع ما قبله وما بعده من أعمار. فإذا أخذنا بالاعتبار أن المفرد هو «أضعف» هذه البدائل من حيث مدى قربها من صيغة التثنية فقد يجوز أن نرى في تزايد اللجوء إليه بديلاً للمثنى مؤشراً جديداً على ما قد يتسم به هذا السن من ركود لغوي.

حالة خاصة: تثنية «صبي»

يواجه الأطفال في كل الأعمار صعوبة ظاهرة في تثنية «صبي». فمن بين كل الأطفال البالغ عددهم 92 طفلاً لم يتوصل إلا تسعة (9) منهم إلى استعمال التثنية القويمة لـ «صبي» أي ما نسبته 10% تقريباً، فيما بلغ المعدل الوسطي العام لاستعمال المثني القويم في كل الأعمار 44% تقريباً. تعود صعوبة هذه التثنية في ما نعتقد إلى عقبة صوتية صرفة، إذ تفرض تثنية «صبي» وما يشابهها تنابع يائين أولاهما مشددة: «صبيين»، وهي عقبة يتغلب عليها الأطفال أحياناً بتجنب هذا التنابع عن طريق المزج بين صيغتي الجمع والمثني فيقولون: «صبيانين» وهي الصيغة التي ظهرت 9 مرات في كل الأعمار أي ما نسبته 10% من إجابات الأطفال. غير أن الأطفال يميلون بوجه عام في مواجهة هذه الصعوبة في تثنية «صبي» إلى اللجوء ببساطة وبوجه خاص إلى صيغة الجمع «صبيان» (بنسبة 42,5%).

ب - تطوّر استعمال الجمع «المكسرة»

يخضع جمع الأسماء في العامية لقاعدتين مطّردتين (جمع المذكر «السالم» وجمع المؤنث «السالم») ولأوزان سماعية عدّة تُدعى جموع التكسير (راجع النقطة رقم 2). يتحكّم معظم الأطفال ابتداءً من الثالثة - وحتى قبل الثالثة - بتطبيق القاعدتين المطّردتين تطبيقاً قوياً فيما يتحكّم جميع الأطفال على وجه التقريب بعد الثلاث سنوات ونصف السنة بتطبيق هاتين القاعدتين. غير أن ما يقلّ قليلاً عن نصف الأطفال لا يتوصّل عند حدود السادسة إلى استعمال جموع التكسير استعمالاً مطابقاً للأوزان المناسبة. والحال فإنهم يلجأون في أغلب الأحيان عند قصورهم عن استعمال الصيغة المناسبة لجمع التكسير إلى تطبيق صيغ للجمع غير مناسبة أهمها على الإطلاق صيغة الجمع للمؤنث السالم فيجمعون ملعقة على ملعقات وحصان على حصانات، الخ. كما يلجأون في أحيانٍ أخرى إلى استعمالات لغوية لا جمعية بديلة أهمها صيغة العدد مضافاً إلى المفرد (خمسـة حصان) أو استعمال المفرد أو صيغ أخرى أقل أهمية.

نجد في الجدول رقم 2 وفي الرسم البياني رقم 2 نتائج الاختبار المتعلقة بتطوّر النسب المئوية لاستعمال صيغ الجمع «المكسرة» القويمة والصيغ غير القويمة ومنها على حدة صيغة الجمع للمؤنث السالم وكذلك النسب المئوية للاستعمالات غير الجمعية البديلة (خمسـة + المفرد، المفرد) وفقاً لفئات الأعمار.

العمر بالسنوات والأشهر	3,6 - 3	4-3,6	4,6 - 4	5 - 4,6	5,6 - 5	6 - 5,6
الصيغ المستعملة						
الجمع القويم	22,20	27,8	24,8	35	47,75	54,05
الجمع غير القويم	40	31,25	35,2	35,7	40,17	33

الجدول رقم 2

تطوّر النسب المئوية لاستعمال صيغ الجمع «المكسرة» القويمة وغير القويمة وبدائلها حسب فئات العمر.

23,95	34,83	32,4	27,25	27,25	37,5	الجمع غير القويم: صيغة الجمع للمؤنث السالم
6,68	7,58	18,8	12,8	31,25	15,30	خمس + المفرد
0,95	2,25	5,6	19,4	5,20	12,5	المفرد
5,26	2,25	4	7,8	4,50	10	صيغ أخرى

— جمع قويم

— جمع غير قويم

— . . . - جمع للمؤنث السالم

++++ عدد + مفرد

. + . + مفرد

فئات العمر

الرسم البياني رقم 2 - تطوّر النسب المثوية لاستعمال صيغ الجمع «المكسرة» القويمة وغير القويمة وبدائلها حسب فئات العمر .

50 25 3,6 - 3 4 - 3,6 4,6 4,6 - 4 5 - 4,6 5,6 - 5 6 - 5,6 %

نخلص من هذه النتائج بالخلاصات الآتية :

- يبدو أن أقل من ربع الأطفال (22%) ما بين 3 - 3,6 يتوصّل إلى التحكم بتطبيق الصيغ المتنوعة لجموع التكسير. تتزايد هذه النسبة قليلاً (27,8%) في الفترة اللاحقة (3,6 - 4) لتعود فتنخفض ما بين 4 - 4,6 انخفاضاً محدوداً (24,8%)، هذا الانخفاض - أو الجمود على الأقل - الذي يحمل على اعتباره دليلاً على ما يمكن أن تنصف به هذه الفترة من ركود لغوي في استعمال الجموع «المكسرة». يمكن القول إذاً بوجه الإجمال أن ربع الأطفال فقط على التقريب ما بين الثالثة والرابعة والنصف يستعملون جموع التكسير استعمالاً مناسباً.

تمثّل الفترة ما بين الرابعة والنصف والخامسة - كما في استعمال المثني - فترة الطفرة في استعمال الأطفال لجموع

التكسير استعمالاً قوياً؛ إلا أنها طفرة محدودة لم تتجاوز فيها نسبة الأطفال الذين تحكّموا بجموع التكسير 35%. تتزايد هذه النسبة في الفترتين اللاحقتين تزايداً ملموساً وثابتاً لتبلغ على التوالي 47% (بين 5 - 5°6) و 54% (بين 6 - 5°6).

يظهر من هذه النتائج أن ما يزيد قليلاً على نصف الأطفال يتحكّم على مشارف السادسة باستعمال الجموع «المكسّرة» استعمالاً قوياً، مما يعني أن ما يقل قليلاً عن نصفهم لا يتحكّم بهذا الاستعمال.

- يلجأ الأطفال عند عجزهم عن استعمال الصيغة القويمة للجمع «المكسر» إلى استعمال صيغ غير قويمة عديدة ومتنوعة للغاية. فإن ما يتراوح بين 30 - 40% من الأطفال يميلون إلى استعمال هذه الصيغ غير القويمة لجموع التكسير. وتنفوق هذه النسبة حتى حدود الخامسة نسبة مستعملي الجموع المكسّرة القويمة. وتمثل صيغة الجمع للمؤنث السالم الجزء الأعظم من هذه الصيغ غير القويمة، أي ما يتراوح بين 25 - 35% من إجابات الأطفال في كل الأعمار. ففي أغلب الحالات يميل الأطفال عندما يصدمون بصعوبة الجمع جمعاً مكسّراً إلى تطبيق صيغة الجمع للمؤنث السالم فيقولون «حصانات» و «أرنبات» و «قلمات»، الخ. ونصادف هنا ظاهرة هامة من ظواهر الاكتساب اللغوي ونعني بها ظاهرة التعميم الزائد لقاعدة لغوية: فالطفل يكوّن بطريق ضمني قاعدة صرفية للجمع قوامها إضافة الألف والتاء الساكتين ويأخذ بتطبيقها في مجالها (المؤنث السالم) وفي غير مجالها (الجموع المكسّرة)، أي أنه يقوم في الحالة الأولى بتعميم هذه القاعدة الصرفية تعميماً مناسباً فيما يقوم في الحالة الثانية بتعميمها تعميماً زائداً.

أمّا صيغ الجمع غير القويمة الأخرى فإنها إمّا «تنوعات» لصيغة جمع المؤنث مثل «كتابيات» و «حصانيات» و «كلبيات»، إلخ وإمّا مزج للصيغة القويمة مع صيغة جمع المؤنث مثل «صبيانات» و «عصافيرات» و «عيونات»، إلخ، وإمّا أخيراً تطبيق لأوزان معينة للجمع لا سيما وزن فعولي في غير نطاقها المناسب مثل «حصوني» و «كلوبي» و «قلومي» و «كتوبي»، إلخ.

ونود أن نلاحظ في كل الأحوال أن نسبة اللجوء إلى الاستعمالات غير القويمة لجموع التكسير لا تنخفض مع العمر انخفاضاً قوياً ولا ثابتاً. فعلى مشارف السادسة يظل ثلث الأطفال يلجأون إلى مثل هذه الاستعمالات رغم أنهم يأخذون بتنويعها أكثر من ذي قبل. ويظهر هذا التنوع من خلال الفرق بين نسبة الجموع غير القويمة ونسبة الجمع للمؤنث السالم: فكلما اتسع هذا الفرق عني ذلك أن ثمة تنوعاً أكبر في الاستعمالات غير القويمة لجموع التكسير.

- حين لا يستطيع الطفل استعمال الصيغة القويمة للجمع المكسر ولا استبدالها بصيغة غير قويمة فإنه يلجأ إلى استعمالات لغوية لا جمعية بديلة أهمها صيغة العدد مضافاً إلى المفرد (خمس حسان) وصيغة المفرد وصيغ أخرى أقل أهمية كالثنى بوجه خاص.

تشكّل صيغة «العدد + المفرد» أهم هذه البدائل غير الجمعية في كل الأعمار (باستثناء الفترة بين 4 - 4,6) وذلك لارتباط مفهوم العدد أصلاً بمقولة الكثرة. ينخفض اللجوء إلى هذه الصيغة بعد الخامسة انخفاضاً ملموساً إلا أنها صيغة لا تغيب على مشارف السادسة عن السنة الأطفال غياباً تاماً. أمّا صيغة المفرد وبالنظر لبعدها بطبيعة الحال

عن مقولة الكثرة فإن اللجوء إليها يتناقص تدريجياً مع العمر (باستثناء الفترة بين 4 - 4,6) إلى أن ينعدم على مشارف السادسة انعداماً شبه تام. ونواجه هنا مجدداً ظاهرة ارتفاع نسبة اللجوء إلى صيغة المفرد بدلاً للجمع في سن 4 - 4,6 (19,5%) بالمقارنة مع ما قبله وما بعده من أعمار. أضف أن هذه السن تنفرد دون غيرها بارتفاع نسبة اللجوء إلى المفرد على نسبة اللجوء إلى صيغة «العدد + المفرد» (19,5% < 12,8%). والحال أن المفرد هو «أبعد» البدائل المتاحة عن صيغة الجمع، فهل يشكل تزايد اللجوء إليه مؤشراً إضافياً على ما قد تتصف به هذه السن من ركود لغوي؟

حالات خاصة

بلغ المعدل الوسطي العام لاستعمال الجمع المكسرة القويمة في كل الأعمار نسبة 35%. غير أننا نلاحظ أن نسب الجمع القويم لبعض المفردات قد تعدت بصورة ملحوظة هذا المعدل العام فيما تدنت نسب الجمع القويم لبعض المفردات الأخرى تدنياً ملحوظاً عن هذا المعدل. ولا ريب أن الحالة الأولى تمثل مؤشراً واضحاً على مدى السهولة في الجمع فيما تمثل الحالة الثانية مؤشراً على مدى الصعوبة في هذا الجمع.

وعليه نجد في الجدول رقم 3 مجموع الجمع القويم لكل مفردة في كل الأعمار والنسبة المئوية لهذا المجموع. بحيث تتيح لنا مقارنة هذه النسبة مع المعدل الوسطي العام لمجموع النسب والبالغ 35% أن نحدد مدى السهولة أو الصعوبة في جمع كل مفردة من المفردات المدروسة.

المفردات	وردة	ملعقة	حصان	صبي	عصفور	كلب	كرسي	ارنب	قلم	كتاب	فنجان	عين
مجموع الجمع القويم	84	30	5	60	45	31	51	18	28	29	27	35
النسبة المئوية	%91,30	%32,61	%5,43	%65,22	%48,91	%33,70	%55,43	%19,57	%30,43	%31,52	%29,35	38,04

الجدول رقم 3 - مجاميع استعمالات الجمع القويمة للمفردات في كل الأعمار (من أصل العدد: 92 طفلاً) ونسبها المئوية (المعدل الوسطي العام لهذه النسب بلغ 35,17%).

نستنتج من هذا الجدول الاستنتاجات العامة الآتية:

- تتجلى السهولة القصوى في جمع المؤنث السالم حيث أن 91% من الأطفال بين الثالثة والسادسة يتحكمون بهذه الصيغة للجمع على وزن فعلات مثل: وردات.

- توجد سهولة نسبية في جمع صبي - صبيان على وزن فعلان (65%) وجمع كرسي - كراسي على وزن فعالي (55,5%) وجمع عصفور - عصافير على وزن مفاعيل (49%).

- تظهر الصعوبة القصوى في جمع حصان - أحصنة على وزن أفعله حيث أن 5,5% فقط من الأطفال بين

الثالثة والسادسة استطاعوا استعمال الجمع القويم لهذه المفردة (ويجوز القول أن الصعوبة تشمل في الحقيقة استعمال الوزن نفسه : أفعله) .

5 - خلاصة عامة ومحاولة تعليل

أ - المثنى

بالرغم من خضوع التثنية في العامية لقاعدة صرفية مطّردة وبسيطة فإن معظم الأطفال لا يتحكمون باستعمالها استعمالاً قوياً إلا بعد الرابعة والنصف . فابتداءً من هذه السن تظهر الطفرة في عدد الأطفال الذين يسدأون بتثنية الأسماء بصورة صحيحة ، إلا أن هذه الطفرة لا تبلغ حتى مشارف السادسة تماماً ، حيث يبقى ما يقارب 30% من الأطفال قاصرين عن تثنية الأسماء حينها يستدعي الموقف هذه التثنية .

يكاد ينعدم لجوء الأطفال إلى بدائل غير قوينة للمثنى ، فهم يلجأون في الغالب عند قصورهم عن التثنية إلى صيغ الجمع القويم منها وغير القويم وهي صيغ لا يتلاشى ظهورها في استخدامات الأطفال بوصفها بدائل للمثنى حتى السادسة من العمر بل تغدو في هذه السن البديل شبه الوحيد للتثنية . أما البديلان الآخران للتثنية ونعني بهما المفرد وصيغة «تثن مضافاً إلى المفرد» فإن اللجوء إليهما يقل بوجه عام مع العمر إلى أن يتلاشى تقريباً على مشارف السادسة .

كيف نعلّل هذه النتائج؟ من الواضح أن التأخر النسبي في استعمال المثنى عند أغلب الأطفال - بالمقارنة مثلاً مع استعمالهم المبكر للجمع «السالم» - لا يرتبط بعلة لغوية صرفية وذلك بالنظر إلى أطراد القاعدة الصرفية التي تحكم التثنية وبساطتها . لذا قد نميل إلى ردّ هذا التأخر إلى درجة التواتر الضعيفة لصيغة التثنية في محيط الأطفال . فاستعمال المثنى في هذا المحيط استعمال قليل التواتر بالمقارنة مع استعمال المفرد والجمع وذلك ببساطة لأن ظهور حالة الازواج من الوجهة الاحتمالية ظهور ضعيف الاحتمال بالمقارنة مع احتمال ظهور حالتي الأفراد والكثرة (أي ما يتعدى الاثنين من الأشياء والكائنات) . غير أن هذا العامل وحده (التواتر) لا يفسّر لنا في الواقع الشيء الكثير في مجال اكتساب اللغة . صحيح أن الصيغ الصرفية والنحوية التي يستعملها الكبار من حول الطفل صيغ متفاوتة التواتر ، إلا أنه بات من المعلوم تماماً أن اكتساب الطفل لهذه الصيغ لا يخضع حصراً لمبدأ التدرّج في تواترها في محيطه . ويكفي أن نتصوّر في هذا المجال أننا كرّرنا أمام الطفل لمدة كافية من الزمن صيغة صرفية أو نحوية عويصة لا تتوافق والنمو الطبيعي للغة ، في هذه الحالة نكون أمام أحد مصيرين لهذه الصيغة : إمّا أن تتلاشى من استعمال الطفل بعد مدة وجيزة من عدم التكرار (وهذا هو الأرجح) وإمّا أن يردّها الطفل تردداً ببغائياً دون فهم وهو ما ينزع عن هذه الصيغة صفتها كصيغة مكتسبة فعلاً . فالواقع أن الطفل يكتسب الصيغ اللغوية بانتظام يتوافق مع انتظام تطوره الذهني أو في الأقل مع انتظام خاص بالتطور اللغوي الطفلي نفسه ولا يؤدي عامل التواتر في هذا الاكتساب إلا دوراً محدوداً .

على ذلك نرجّح أن التأخر في استعمال التثنية يرتبط على وجه خاص بعلة معرفية أساسية : فالتثنية لا تؤدي من

الوجهة المعرفية دوراً وظيفياً متميزاً عن الجمع في منطق الطفل للمجموعات . فالأشياء والكائنات تبدو في منطق الطفل الصغير ومن حيث انتظامها في مجموعات إما في حالة الأفراد وإما في حالة الكثرة ولا يبدو أن حالة المثنى تشكّل في هذا المنطق وقبل الرابعة والنصف مفهوماً معرفياً متميزاً . فالمثنى بهذا المعنى مفهوم معرفي نافل ويمكن بالتالي الاستغناء عن التعبير عنه في اللغة وهذا بالضبط ما يفعله الطفل الصغير وما نلاحظه في اللغات التي لم تخصّ حالة المثنى بصيغة صرفية وكذلك في العاميات العربية التي تقصر المثنى على الأساء دون الأفعال والضمائر . ومما يعزّز هذا التعليل أن الأطفال لا يلجأون لانعدام حاجتهم المعرفية بالمثنى أصلاً إلى بدائل غير قومية للمثنى . فحالة المثنى هي في منطق الطفل الصغير حالة الكثرة وهي الحالة التي يعبر عنها بصيغة الجمع التي لا تغيب عن تعبيره كبديل للمثنى حتى عند بلوغه السادسة . والحال أن صيغة المثنى متميزاً في ذهن الطفل بصورة متدرّجة وذلك بتأثير لغة الكبار لا بتأثير حاجة معرفية لا غنى عنها ويغدو أغلب الأطفال قادرين بالتالي على التحكّم اللغوي بهذه الصيغة من الرابعة والنصف دون أن يبلغ هذا التحكّم تمامه حتى السادسة .

ب - الجمع

يتحكّم معظم الأطفال منذ الثالثة بتطبيق القاعدتين المطّردتين للجمع - أي جمع المؤنث السالم وجمع المذكر السالم - تطبيقاً قوياً . ويمكن القول أنه ابتداءً من الثالثة والنصف فصاعداً لا تعود الأغلبية الغالبة من الأطفال (ما يتعدى 95% منهم) تخطئ في استعمال الجمع «السالم» إلا في القليل النادر . غير أن اللافت للنظر أن الأطفال يميلون ميلاً واضحاً إلى تعميم إحدى هاتين القاعدتين ونعني بها قاعدة الجمع للمؤنث السالم على المفردات التي لا تخضع جموعها في العاميات العربية لهذه القاعدة فنجدهم يجمعون حصان على حصانات وملعقة على ملعقات ، الخ . لا يتوقف هذا الميل حتى مشارف السادسة ، إذ نجد في هذه السن ما يقارب ربع الأطفال في اختبارنا يلجأون إلى هذا التعميم . يمثل هذا التعميم الزائد لصيغة الجمع بإضافة الألف والتاء في نهاية المفردة أهم الحلول أو البدائل التي يلجأ إليها الأطفال في إزاء المفردات التي تخضع جموعها لأوزان «شاذة» ، أي تلك المفردات التي تُجمع جمع تكسير . ذلك أن معظم الأطفال لا يتحكّمون بهذه الجموع «الشاذة» إلا في سن متأخرة نسبياً ، أمّا في السنوات الأولى حتى الخامسة فإن نسبة الأطفال الذين يلجأون إلى صيغ غير قومية لجموع التكسير تفوق نسبة الذين يستعملون الصيغ القومية . ويحدث التزايد في نسبة مستعملي الجموع المكسرة القومية بصورة تدريجية متميزاً بهذه الطفرة المحدودة في سن الرابعة والنصف ، غير أن هذا التزايد لا يتعدى على مشارف السادسة نسبة 55% من الأطفال . أمّا البديان الآخرون للجمع المكسّر ونعني بها صيغة العدد مضافاً إلى المفرد وصيغة المفرد فإنها يتناقصان مع السن - ولكن بصورة غير منتظمة - إلى أن يصل هذا التناقص على مشارف السادسة حداً ينعدم فيه استعمال المفرد ويندر فيه اللجوء لصيغة العدد مضافاً إلى المفرد .

من البين أن التحكّم المبكر باستعمال الجمع «السالم» إنما يعود في جانب منه إلى أطراد القاعدة التي تحكم هذا الجمع وبساطتها النسبية . غير أننا لاحظنا أن هذين العاملين اللغويين (الأطراد والبساطة) قد توافرا في قاعدة المثنى من غير أن يمنعا التأخر الزمني النسبي بالتحكّم بها . لذا نضيف أن ارتفاع تواتر ظهور الجمع «السالم» في محيط

الأطفال قد يشكّل عاملاً مسرعاً في التكبير في استعماله . إلا أننا اسلفنا في صدد المثني أن عنصر التواتر لا يمكن وحده أن يفسّر التقدم أو التأخر في اكتساب هذا الجانب أو ذاك من جوانب اللغة . على ذلك لا نملك تعليلاً للاستعمال المبكر للجمع «السالم» - والجمع بوجه عام - إلا القيمة المعرفية الهامة التي تؤديها هذه الصيغة الصرفية في منطق الأطفال . فالواقع أن الجمع يؤدي دوراً اقتصادياً ولا أهم في معرفة الطفل للمجموعات من الأشياء والكائنات . فصيغة الجمع تُطبّق على كل مجموعة من الأشياء أو الكائنات المتماثلة مهما بلغ عددها وهي بذلك تُغني الطفل عن عدّ عناصر هذه المجموعة ثم الإشارة إليها بصيغة العدد مضافاً إلى المفرد مثلاً ، كما أنها صيغة تُغني عن تسمية عناصر هذه المجموعة مفردةً الواحدة تلو الأخرى كالقول في إزاء عدد من الزهرات : زهرة وزهرة . . . الخ . فالعدد مضافاً إلى المفرد وتكرار المفردة قد لا يُعدّان صيغتين غير اقتصاديتين في حالة الزوج من الأشياء أو الكائنات إلا أنها سيبدوان غير اقتصاديتين تماماً حين يتعدى العدد الزوج من هذه الأشياء أو الكائنات .

وعليه تبدو هذه الحاجة المعرفية الملحة لصيغة الجمع عاملاً دافعاً للطفل لاكتساب هذه الصيغة اكتساباً مبكراً . ومما يعزّز هذا التعليل أن الطفل حين يواجه الصعوبات اللغوية المعروفة في جموع التكسير يلجأ بصورة أساسية إلى صيغ جمعية أخرى لا إلى صيغ غير جمعية ، كما أن الجمع يشكّل البديل الأساسي الذي يلجأ إليه الطفل عند قصوره عن التثنية .

إن الصعوبات التي يواجهها الطفل في استعمال جموع التكسير بالمقارنة مع استعماله للجمع «السالم» إنما هي صعوبات لغوية صرفة . فأوزان هذه الجموع متعددة ولا تخضع للاطراد كما أنها تفتقد البساطة بحيث لا تقتصر كالجمع السالم على إضافة لواحق محدّدة في نهاية المفردة بل تفرض تحولات داخلية في هيكل المفردة . وعليه يلجأ الطفل أكثر ما يلجأ في إزاء هذه الصعوبات إلى تعميم القاعدة الصرفية المطّردة والبسيطة على ما لا يخضع صرفياً لهذه القاعدة . وتدعونا هذه الظاهرة في التعميم الزائد لقاعدة لغوية إلى تعديل نظرتنا إلى اكتساب الطفل للغة : فالطفل لا يكتسب الصيغ الجاهزة بل يكتسب في الواقع قواعد تتكوّن منها ومن ثم يقوم بتعميم هذه القواعد . إلا أنه قد يلجأ لصعوبة ما يواجهه إلى تعميم هذه القواعد تعميماً زائداً في غير مجالها الذي تجيزه اللغة . ونجد في هذه الظاهرة مظهراً من مظاهر الابتكار اللغوي عند الطفل : فهو يبتكر الجديد مما لم يسمعه من قبل على الإطلاق ، إلا أنه ابتكار لا تجيزه قواعد اللغة .

لاحظنا أن الصعوبات التي يواجهها الطفل في استعمال الجموع المكسّرة صعوبات متفاوتة الشدة من مفردة لأخرى . فما مردّ هذا التفاوت؟ يصعب في الواقع تعليل عوامل الصعوبة والسهولة في استعمال الجموع المكسّرة تعليلاً لغوياً صرفاً كالتعلّل مثلاً بنوع وعدد التحولات الداخلية التي تطرأ على المفردة بعد جمعها : فالتحولات التي تطرأ على «عصفور» بعد جمعها أكثر عدداً وصعوبة من التحولات التي تطرأ على «أرنب» بعد جمعها . ومع ذلك فإن استعمال جمع «أرنب» كان أشدّ صعوبة من استعمال جمع «عصفور» . وعليه يبدو أن عوامل السهولة والصعوبة في استعمال الجموع المكسّرة ترتبط بصورة أساسية بدرجة تواتر استعمال هذه الجموع في محيط الأطفال . فالجموع الأسهل على استعمال الأطفال هي ببساطة الجموع الأكثر تواتراً في محيطهم . فالراهن أنه قلّمَا يلجأ محيط أطفالنا إلى

استعمال «أحصنة» و«أرانب» لمحدودية الدور الذي يؤديه هذان الحيوانان في حياتنا الاجتماعية في حين يتوارد كثيراً في هذا المحيط استعمال «صبيان» و«كراسي» و«عصافير» نظراً للدور الذي تؤديه هذه الكائنات والأشياء في الحياة الاجتماعية. وبالرغم من ذلك نضيف أن إضافة اللواحق في نهاية المفردة تمثل على ما يظهر أكثر الأساليب الصرفية يسراً على اكتساب الأطفال وهو ما قد يفسر جزئياً على الأقل السهولة في اكتساب الجمع «السالم» وجمع التكسير على وزن فعلان مثلاً كما في صبي - صبيان.

يبقى في الأخير أن نقف عند ظاهرة لفتت أنظارنا في أكثر من موضع ونعني بها ظاهرة الركود اللغوي في استعمال الثنية والجمع في هذه الفترة من العمر بين الرابعة والرابعة والنصف. لقد لاحظنا أن هذه الفترة لم تتميز بأي تحسن ملموس في استعمال الثنية ولا في استعمال جموع التكسير لا بل لاحظنا في هذه الفترة شيئاً من النكوص أو التقهقر في هذا الاستعمال. كما أن هذه الفترة اتصفت بالمقارنة مع ما قبلها وما بعدها من فترات بأرفع نسبة من الأطفال الذين يلجأون عوضاً عن المثني وعن الجمع إلى صيغة المفرد وهي الصيغة التي تمثل «أضعف» بدائل الثنية والجمع. فهل في الأمر ظاهرة من ظواهر الاكتساب اللغوي حقاً؟ قد تمثل الفترة الواقعة بين الرابعة والرابعة والنصف فترة من الكمون اللغوي الذي يسبق ويهيء لهذه الطفرة التي لاحظناها في نسبة مستعملي الثنية والجمع استعمالاً قوياً في الفترة اللاحقة بين الرابعة والنصف والخامسة. فإذا كان الأمر كذلك صح أن نرى في التطور اللغوي حالة من حالات التطور المتقطع الذي تتخلله فترات من النكوص والركود والطفرة لاحالة من حالات التطور المتصل المتدرج والمتجه صعوداً على الدوام بالوتيرة نفسها. وفي كل حال فإن الحسم في هذه المسائل وغيرها يحتاج إلى تضافر البحوث حول تطور الأوجه المختلفة للغة وكذلك حول تطور الأوجه المختلفة للحياة العقلية لا سيما الوجه المعرفي منها.